ضرورة المحافظة على
التراث العلمي

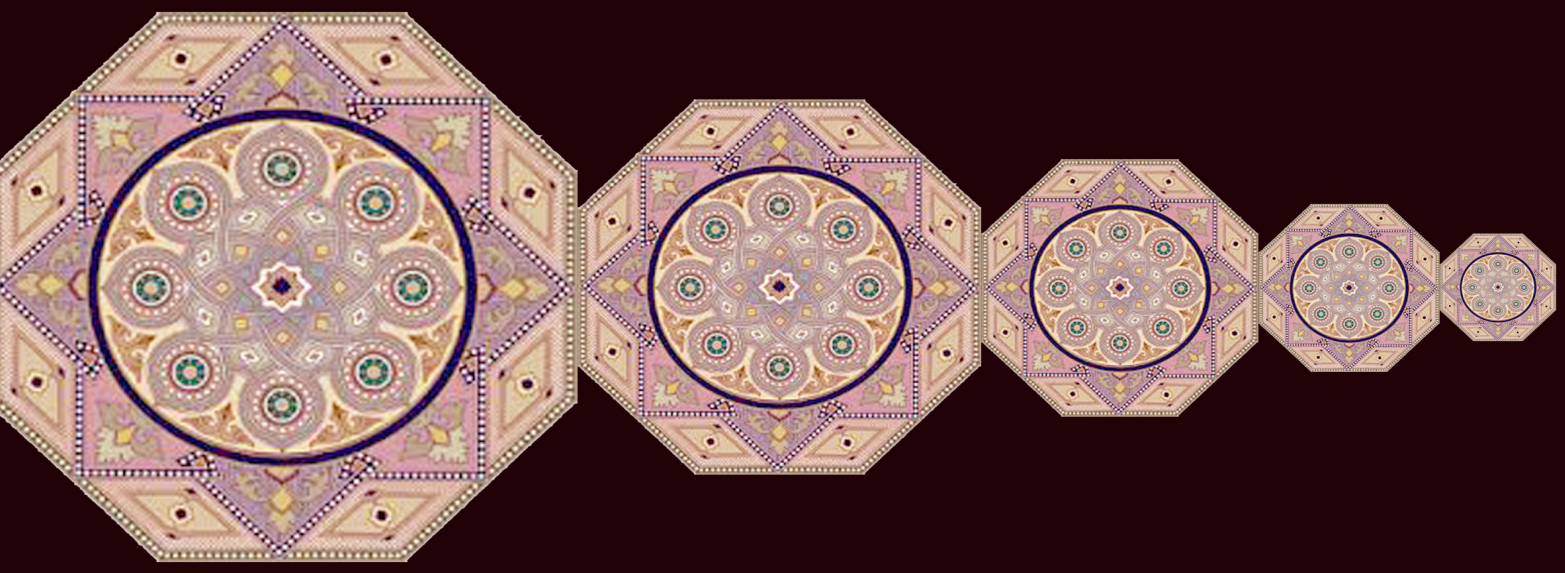

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن علي الربيعة

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ضرورة المحافظة على التراث العلمي

بقلم
د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة
الأستاذ بالمعهد العالي للقضاء

تقاس اصالة الأمة بما خلفه لها أسلافها من تراث ، وتتضح مكانتها في غابر الأزمان بما شيدته أيادي أجدادها من حضارة، وما أبدعوا فيه من فن ، وما أحرزوه من انتصار في ميدان الفكر والعلم ، وما كسبوه في ميدان الجهاد ، وما اتصفوا به من حنكة ودهاء وحسن سياسة ·

ولا شك أن أي أمة من الأمم تريد بناء نفسها ، واعادة ما كان لأسلافها من مجد وحضارة ، وما كان لها من مكانة بين أمم العالم ، لا شك أنها مضطرة في سبيل الحصول على ذلك الى المحافظة على ما خلفه لها الأسلاف من تراث ، والاعتناء به ، والاستفادة منه ، اذ هو سلم وصولها قمة ما غبر لها من مجد ، وما تقدم لها من حضارة ومكانة بين أمم الأرض ·

والتراث في ميدان العلم سواء في ذلك علوم الدين والدنيا يقف في مقدمة التراث ، ويحتل المرتبة الاولى فيه ، اذ العلم هو القاعدة الأساسية التي يقوم عليها بناء الأمة ، ويعلو به شأنها ، وبمقدار ما تكسبه من علم ترتفع في مدارج السمو ، وبمقدار ما تفقده منه تنحط في دركات الجهل والشقاء ··

والمطلع على تاريخ الاسلام والمسلمين منذ بعثة نبي الاسلام محمد صلى الله عليه وسلم ، يعرف ما لأمة الاسلام في مجال التراث العلمي من رصيد ضخم ·

انه لا يعد بالمئات والآلاف بل هو من الكثرة يعد بمئات الآلاف والملايين ، وهو من الضخامة بحيث لا يقع في وريقات ورسائل وكراريس ، وانما يقع في معظمه في أجزاء ضخمة ومجلدات متعددة ·

وهو الى جانب ضخامته، ليس تراثا تقليديا يستمد حياته ووجوده من تراث غير تراث أهله ، ويستمد مادته من تراث أمة سبقته في الريادة في هذا الميدان ·

وانما هو تراث أصيل مبتكر، استمد حياته ووجوده من أعظم رسالة نزلت من عند الله سبحانه ، على أكرم رسول أرسل الى الخليقة ، استمد وجوده وحياته من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، واجماع الأمة ، واجتهاداتها المستوحاة من قواعد الاسلام وكلياته العامة ·

وهو الى جانب ما اتصف به من اصالة

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وابتكار ، وكثرة في العدد ، وضخامة في المادة ، الى جانب ذلك كله ، قد قيض الله لـه هذه الأمة الاسلامية وقتا لا يضاهيه أي وقت من الأوقات التـي قدر لهـا أن تكـون ظرفا لأي حضارة من حضارات الدنيا ، فقد قيضها الله سبحانـه لهذا التراث أربعـة عشر قرنـا من الزمان ، خدمته فيها خدمة جليلة ، يحدوها في ذلك عقيدتها التـي توجب عليها الاخلاص في خدمته ، والسهر في تجلية مسائله ، والمعاناة في بحث ما قد يعترضه من مشكلات ٠

وقد برزت آثـار تلك الخدمة الجليلة التي قدمها المسلمون في تلك الاعوام الطويلة ، فيما انتهوا اليـه مـن تراث علمي عظيم ، ومـا أنضجوه بحثا مـن قضايا هذا التراث ، حتى فارقوه بمفارقتهم للحياة الدنيا ، وهو طعام شهي ، سائغ لا يحتـاج الباحث الا أن يقرأه ليجد فيه بغيته ٠

ونحن أبنـاء المسلمين حـين نستيقظ على هتاف المخلصين ، بالرجوع الى تراثنا العلمي ، نجد واقعا أليما لهذا التراث ، نجد أكثره قد انتقل من ملكية أهله الشرعيين وهم المسلمون، الىملكية أعدائه وهم أعداء الاسلام والمسلمين، ونجده في بعض الدول التـي نقل اليها ، قد صار حبيسا لا يرى النور ، بل صار في عداد الاموات ، حيث وضع في المتاحف وأمكنة الآثار التي عفـا عليها الزمن ، بل صار مـع ذلك محجوبا عن أهله ومريديه ، فـلا يسمح لهم بمجرد الاطلاع عليه ، ولا الاستفادة منه ، بله تصويره أو تصويـر شيء منـه ، فضـلا عن التفكير في استعادته أو استعادة شيء منه بغض النظر عما تقدمه أمة الاسلام ثمنا لذلك ٠

أما الـدول التـي تسمح لأهـل التـراث بالاطلاع عليه ، فان التراث وان كان أحسن حالا في هذه الناحية مـن التراث عند مـن لا يسمح باطلاع أهلـه عليه ، الا أنـه مع ذلك يبقى كما وصفنا حبيسا لا يرى النور، في عداد الامـوات لا تمتد اليـه يد الاصلاح بالتحقيق والنشر لينتفع به الناس ٠

وما لنا نذهب نصف الواقع المؤلم للتراث الذي وقـع أسيرا في أيدي الاعداء ، وواقع البقيـة الباقية منـه في ديـار المسلمين ليست بأحسن حالا مما وقع في أيدي الاعداء ٠

ان واقع كثير من هذه البقية الباقية مؤلم، لما يعتوره من أمر من أمور أربعة :

١ ـ وهو أحسنها حـالا اذا مـا قورنت حاله بمـا بعده ، ان بعضها يقـع حبيسا في خزائن المخطوطات ودور الوثائق ، لا يحظى من أصحابـه بنظرة عطف ، وبالتفاتة عرفان له حيث كان سندا قويـا لهم في اخراجهم من ظلمات الجهل وضيق العيش ، الى نور العلم وسعة العيش ، كما لا يحظى من متخصصيهم بالعكوف عليـه ، وفهرسته وتكشيفه ، فضلا عما يجب عليهم له من تحقيقه ونشره ٠

٢ ـ ان بعضها مع كونه لا يحظى بمـا لم يحظ بـه الصنف الاول ، قد تساهل أهله في حفظه وصيانته ، حتـى غدا في سقط الأمتعة التي لا يؤبه بها ولا يرفع بها رأس ، وقد أدى ذلـك الى أن يكون ميدانا فسيحـا للأرضة ، وطعاما للفئران ، ومعبثا لبقية الحشرات ٠

٣ ـ ان بعضها قد وقع بحكم الارث الشرعي في أيدي أناس جهلـة لا يعرفون العلـم ، ولا

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يقدرون دوره في بنـــاء الأمـم والشعوب ، فسكتوا عليـه كما يسكت عـلى كنوز الذهب والفضة ، ولم يخبروا بـه أحـدا مـن ذوي الشأن الذين يقدرون العلم ، ويرجى احياؤه عـلى أيديهم ، وخشي أولئك أن يخبروا بـه فينتقل عنهم فلم يعودوا يملكونه ، فلجأوا الى هذا الطريق المشين ·

٤ ـ ان بعضها قد وقع في أيدي أنـاس لا يقدرون التراث بمقدار ما يقيمون للمال من وزن كبير ، نتيجـة جهلهم بقيمة التراث ، أو نتيجة شرههم في حب المـال ، وجشعهم العظيم الذي أدى بهم الى أن يسلكوا في سبيل الوصول اليه أي طريق ولو كان فيه مضرة الأمة ، وبيع أغلى ما تعتز به وتقيم عليه بناءها ·

ولهذا نجد هذا الصنف يجعل مـن التراث سلعة رائجة يبيعها عـلى الاعداء ، ويبذلها في مقابـل ثمن زهيد بالنسبـة لقيمتهـا العلمية والتاريخية ، يبذلهـا لأناس هـم أعداء لهـا ولأهلها ·

ونجد هـذا الصنف عنـد اليقظـة للأمة العربيـة والاسلامية بهـذا الخطر ووضعهـا وسائل تمنعه ، نجده عند ذلك يسلك وسائل شتى للتحايل على هذه الأنظمة ·

واذا أردنـا أن نتبين أسباب هـذا الواقع المؤلم للتراث العلمي ، سواء مـا كان منه في ديار المسلمين أم ما كان في ديار أعدائهم ، نجد في طليعة تلك الاسباب ما أصاب ديار المسلمين واستعمرها وبسط نفوذه على مقدراتها، وتبع ذلـك الجهل الذي تفشى في نسبـة كبيرة من المسلمـين ، والفقر الـذي شغلهم بالبحث عن سواها ·

وبذلك عاث المستعمر في كثير مـن بـلاد المسلمين ينقب عن تراثها العلمي ومخطوطاتها الثمينـة ، ويسرقها ويسافر بهـا الى بلاده ، ويستغل جهـل مـن يملكـون المخطوطات أو فقرهم ، أو فساد ضمائر من ائتمنوا عليها ، فيشتريها منهم بأثمان زهيدة بالنسبة لقيمتها العلمية والتاريخية والحضارية ·

أما بعد أن رحل المستعمر مما استعمره من بلـدان المسلمين ، فـان التسلط وان زال ، والفقر وان عدم في كثير من بلدان المسلمين ، الا أن جهـل كثـير ممن يملكـون المخطوطات وايثارهم لحب المال على حب المخطوطات ، كان من الاسباب الرئيسية لواقع التراث العلمـي الاليم ·

وهناك سبب آخر يتعلق بواقع التراث نحو بعثه وتحقيقه ونشره ، وهو عزوف كثير مـن الباحثين عن هذا النوع مـن العمل العلمي ، انسياقا منهـم وراء بريـق المظاهر الخلابـة للحياة ، وتخلصا مما يتطلبه التحقيق من طول وقـت وقسوة ومعاناة ، فلم يعودوا يكترثون ببعث تراثهم ·

هذا هو واقع تراثنا العلمي ، وأسبابه ·

ولا شك أن هذا يؤدي الى بيان دور الأمة الاسلامية نحو حفظ تراثها العلمي ·

ومن بدهيات الامور أنه يجب علـى الأمة الاسلامية حفظ هـذا التراث ، اذ هـو رمز اصالتهـا الاصيلـة ، ومكانتهـا السامقـة ، وحضارتها العريقـة ، وانتصاراتها الفكرية والعلمية والسياسية ·

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهو - كما ذكرنا سابقا - القاعدة الاساسية التي يقوم عليها بناؤها ويعلو بها شأنها ، وبه يعود لها ما كان لأسلافها من مجد وحضارة ، وما كان لها من مكانة بين أمم الارض .

وحفظ التراث العلمي يتم بوسائل .

منها : أن تسارع الأمة الاسلامية باحصاء تراثها في كل مكان يوجد فيه ، وتفهرس ذلك فهرسة تتوفر فيها العناصر الفنية للفهرسة ، ثم يقوم بتصوير كل هذا التراث دون أن تستثني منه شيئا مهما قلت قيمته .

ومنها : توعية الناس توعية تامة بقيمة التراث ومكانته ، حتى نتلافى بذلك جهل الجاهلين ، وجشع الجشعين ، الذين لا يهمهم التراث بمقدار ما يهمهم المال ، ولا يجدون رادعا من ضمير يردعهم عن أن يقدموا تراثهم لأعدائهم في مقابل ثمن زهيد لقيمة التراث .

ولا شك أن الذي يقوم بهذا الدور خير قيام ، الجامعات وما بها من مراكز للبحث العلمي ، ويقوم به المجامع العلمية ودور الوثائق .

فعلى هذه المرافق وغيرها مما له صلة بالتراث ، يقع العبء ، فعليها أن تهب للقيام بذلك ، فترسل من له خبرة ودراية بهذا الشأن لاحصاء هذه المخطوطات وفهرستها فهرسة فنية وتصويرها ، وعليها أن تبحث عن الطرق الكفيلة بوصولها الى هذا التراث حين يعسر عليها الوصول اليه بطريق مباشر .

ودور الجامعات وما بها من مراكز للبحث العلمي ، لا يقف عند هذا الحد ازاء التراث .

بل يجب عليها اعداد جيل تغرس فيه حب التراث وحفظه وبعثه .

يجب عليها أن تحببهم الى المخطوط العربي والاسلامي ، وتشعرهم أن بعثة بتحقيقه ونشره هو صميم رسالتهم الجامعية .

وعليها أن ترشدهم الى الطرق التي يلزم اتباعها لتحقيق المخطوط ونشره .

وفهرسة التراث وتكشيفه أمر ضروري ، حتى يصل الباحث الى بغيته في أي قضية في أسرع وقت ممكن ، لا سيما وأن التراث الاسلامي تتداخل مسائله ، وتتعدد مناسبات بحث قضاياه ، وهذا أمر يجعل الباحث لا يعثر على بحث ما أراده الا بصعوبة ، حيث قد ترد في بعض الابواب أو الفصول لمناسبة اقتضتها ، دون أن يظن الباحث أنها بحثت به .

وهذا كاف في وجوب اعداد فئة لهذا النوع من خدمة التراث .

وعلى الجامعات أن تقوم فعلا بممارسة هذا ، دون أن تكتفي بتعليمه لناشئتها نظريا .

عليها أن تجند من تراهم من ذوي الخبرة والاختصاص فتكل اليهم فهرسة ما تراه من التراث ، وتكشيفه ، وتحقيقه ، وتكل اليهم بحث بعض القضايا التي تهم المسلمين في عصرهم الحاضر .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وبعد :

فلسنا ننكر ما تقوم به في هذا المجال كثير من الجامعات ودور الوثائق والمجامع في معظم الدول العربية والاسلامية ، ولا سيما معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ٠

بل اننا نذكر هذا الصنيع ونقابله بالشكر والعرفان لمن قاموا عليه ، ولكننا مع ذلك نطلب منهم المزيد من هذا العمل ، ومضاعفة الجهد في هذا الميدان ، لعل هذه الجهود المتضافرة تؤدي في القريب ان شاء الله الى قيام الأمة الاسلامية بالواجب عليها نحو تراثها العلمي ٠

وجهة نظر ٠٠

والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرعا ، وان تلقه بالشر ينحسم

والناس ان ظلموا البرهان واعتسفوا
فالحرب أجدى على الدنيا من السلم ٠

شبكة الألوكة - قسم الكتب